دعائم
العلاقة الزوجية في الإسلام
وأثرها في تنمية الابتكار لدى الأبناء

أ.د. محمد السيد الدسوقي

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

مقدمة

تتفق كلمة علماء الاجتماع على تباين مذاهبهم على أن الأسرة عماد المجتمع وأنها إذا قامت على أسس قوية استقرت أحواله وتوطدت أركانه، فإذا وهنت الدعائم التي تقوم عليها الأسرة اضطربت حياة المجتمع واختل توازنه، فالأسرة هي الخلايا التي يتألف منها جسم المجتمع، وبصلاحها يصلح هذا الجسم وبفسادها يدب إليه السقم والإنحلال.

والذي يلاحظ على الدراسات الاجتماعية المعاصرة أن الاهتمام غلب عليها فيما يتعلق بالأسرة، وبخاصة في العقود القليلة الماضية، وهو اهتمام يعكس التعبير عن أهمية الأسرة وأنها النموذج الأساس لتكوين الشخصية بل هي المهندس الأول الذي يضع تصميم هذا التكوين[1].

ولأهمية الأسرة وأثرها في المجتمع وجهت الشرائع الإلهية نحوها قسطاً كبيراً من العناية والرعاية، والإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتمة الشرائع، وجاء صالحاً للتطبيق الدائم، ومن ثم كان دعوة للناس كافة، قد قرر المبادئ والقواعد التي تبنى الأسرة عليها حتى تنهض برسالتها كما ينبغي أن تكون، لتسود المجتمع الإنساني القيمُ الفاضلة، والحياة الآمنة، ومفاهيم التعاون على الخير والبر..

ولا مجال لتفصيل القول فيما جاء به الإسلام من آداب وأحكام للأسرة، لم تعرف البشرية نظيراً لها في تاريخها الطويل، ومع هذا سأشير إلى طرف منها في غضون هذه الدراسة إذا اقتضى الحال ذلك. كذلك لا مجال لتفصيل القول فيما اشتملت عليه الدراسات الاجتماعية من آراء في الأسرة

ولهذا آثرت أن أتناول جانباً واحداً من جوانب ذلك النموذج ولعله أهمها

---

(١) انظر: دور الأسرة كأداة للضبط الاجتماعي في المجتمع العربي للدكتور عبد المجيد سيد أحمد منصور صـ١١١، ط. الرياض.

وهو دعائم العلاقة بين الزوجين وأثرها في تنمية الابتكار لدى الأبناء، وقد سلكت فيه منهجاً يتركب من ثلاثة مباحث وخاتمة؛ عرض المبحث الأول لمفهوم الأسرة، على حين تحدث المبحث الثاني عن دعائم العلاقة بين الزوجين.

أما المبحث الثالث فقد تناول أثر هذه العلاقة في بناء العقلية العلمية وتنمية الابتكار لدى الأبناء .

وقدمت الخاتمة أهم النتائج وبعض التوصيات .

وأطمع أن يكون في هذه الدراسة -على إيجازها- ما يجدي وأن تسهم في دعم الأسرة وحمايتها من رياح التغريب والتخريب وما أعتى هذه الرياح التي تهب على الأسرة المسلمة تبتغي لها التدمير، حتى لا يعود للمجتمع الإسلامي قوته ونهضته ومكانته التي بوأه الله إياها، ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

****

المبحث الأول

مفهوم الأسرة

لعلماء الاجتماع في نشأة الأسرة وتطورها وأنواعها آراء متباينة[1]، ولا مجال لعرض هذه الآراء وتحليلها، فضلاً عن أنها لا تنهض على أدلة علمية يقينية، وليست سوى محاولات واجتهادات تعتمد على الآثار والنقوش والشعوب البدائية التي عاشت منعزلة عن أمم العالم القديم ولم تتعرض لتيارات الحضارات التي تعرضت لها كثير من الشعوب.

وهؤلاء العلماء مع هذا قد أغفلوا في دراساتهم للأسرة ووظائفها والأنظمة العديدة[2] التي مرت بها ماجاء في الكتب المقدسة[3] عنها، فالقرآن الكريم قد تحدث عن أصل نشأة الأسرة في آيات كثيرة، فبين أن الزواج الفردي هو أصل الأسرة، وأنه أقدم نظام اجتماعي عرفته البشريةوأن الأسرة الأبوية هي الأسرة الأولى في تاريخ الجنس البشري، قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾، وقال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4]

وبالإضافة إلى هذا كله ليس بين علماء الاجتماع اتفاق على رأي واحد في تفسير الظروف والدوافع التي تمخض عنها وجود الأسرة، وأي أنواعها كان أسبق تاريخياً، وهذا يؤكد ما أومأت إليه آنفاً من أن آراء هؤلاء العلماء في موضوع نشأة

---

(١) انظر: أصل العائلة لمليحة عوني، صـ٧ ط. بغداد، سنة١٩٦٤م، والأسرة والمجتمع للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي، صـ٧، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٤٥.

(٢) انظر: الأسرة والمجتمع، صـ٢٤ وما بعدها.

(٣) انظر: أصل العائلة صـ١١.

(٤) الآية: ١٣.

الأسرة اجتهادات ومحاولات تخضع للأخذ والرد والقبول والرفض .

وإذا شئنا أن نحدد مفهوماً للأسرة، ورجعنا في هذا إلى معاجمنا[1] اللغوية فإنها تقدم مادة تدل في مجموعها على أن الأسرة لدى العرب لا تعني فقط الرجل وزوجه وأولاده، ولكنها إلى هذا تشمل الأقارب الذين يتقوى بها فيعقلون الديات ويحمون الظهور.

وهذا المفهوم الواسع للأسرة، كما تحدثت عنها المعاجم اللغوية يعد بعض أقسامها لدى علماء الاجتماع، فقد ذهب هؤلاء العلماء إلى أن الأسرة من حيث نطاقها ثلاثة أنواع:

١ - الأسرة بمعناها الخاص، وهي التي تتكون من الزوجة والأولاد.

٢ - الأسرة بمعناها الواسع، وهي تشمل الزوجين والأولاد وذوي القربى.

٣ - الأسرة بالمعنى الأعم، وهي تشمل كل من يجمعهم أصل مشترك ولو كان بعيداً، وهي منتشرة في البوادي والقرى[2]

فالأولاد في الأسرة إذن جزء جوهري من تكوينها ، وبدونهم تكون كشجرة صوحت أفنانها وتساقطت أوراقها، وهجرتها البلادة المغردة ، ولهذا يحرص كل زوجين على أن ينجيا لينعما ببهجة الأطفال والآمال المعقودة عليهم إذا ما بلغوا مبلغ الرجال، وكم من زوجين فرق بينهما العقم على الرغم مما قد يكون بينهما من حب ووئام.

وإذا كان بعض الأزواج يؤثر عدم الانجاب فراراً من المسئولية فإن هذا البعض بسلوكه يحارب غريزة فطرية لا ينفرد بها الإنسان وحده ولكنها تشمل الكائنات الحية كلها، ومحاربة الغرائز الفطرية للقضاء عليها مآله البوار بلا مراء، ومن ثم

---

(١) انظر: في هذا لسان العرب لابن منظور، وكذلك تاج العروس للزبيدي والمعجم الوسيط أصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة.

(٢) انظر: الأسرة والمجتمع للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوي ، صـ١٥ ط. القاهرة.

حين يتقدم العمر بهؤلاء الذين فرضوا على أنفسهم الحرمان من انجاب الأولاد فإنهم يشعرون بوطأة هذا الحرمان، ويتمنون لو عاد بهم الزمن إلى الوراء ليبدأوا حياة جديدةتستجيب للفطرة السوية في حب الإنجاب والذرية، ولكن هيهات.

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى أن الأولاد متاع الحياة الدنيا وزينتها ﴿المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا﴾[1]، كما حدثنا القرآن أن بعض الأنبياء توجه إلى الله بالدعاء أَن يرزقه الَولد وألا يدعه فرداً بلا خلف يخلفه ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾[2]، ﴿وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً﴾[3]

فالولد نعمة من نعم الله، ومتعة من متع هذه الحياة، ومن واجب كل والدين رعاية النعمة وتعهدها بالتوجيه والحماية لأن ذلك مسئولية من جهة وشكر عليها من جهة أخرى.

ولن يستطيع الوالدان أن ينهضا بمسئولية الرعاية للأبناء إلا إذا كانت العلاقة بينهما حميمة يسودها الود وحسن العشرة والتعاون على القيام بتلك المسئولية وما أقدسها من مسئولية.

المبحث الثاني

دعائم العلاقة بين الزوجين

ما دامت الأسرة لا يتوافر لها المعنى الكامل إلا بوجود الأبناء ومادامت رعاية الأبناء مسئولية مشتركة بين الوالدين، ومادام القيام بهذه المسئولية في إتقان وإحسان لا سبيل إليه إلا بالصلة الوطيدة بين الزوجين. فما هي الأسس والدعائم التي تقوم عليها هذه الصلة حتى تؤدي الأسرة رسالتها كما ينبغي أن تكون؟

---

(١) الآية: ٤٦ في سورة الكهف.

(٢) الآية٨٩: في سورة الأنبياء.

(٣) الآية: ٦ في سورة مريم.

إن أهم هذه الدعائم من وجهة النظر الإسلامية، وهي وجهة لا تعدلها نظم وضعية أو تشريعات بشرية -هي مايلي :

أولاً : لما كان الزواج أساس بناء الأسرة ، ولا يمكن أن تقوم أسرة بدون زواج شرعي، عنى الإسلام بالزواج عناية خاصة تفوق عنايته بأية علاقة إنسانية أخرى، ويبدو ذلك في كل ما عرض له هذا الدين القويم من مسائل الأسرة ابتداء بالخطبة، وانتهاء بالطلاق عند الضرورة.

لما كان الزواج كذلك وجب أن يقوم على الرغبة المشتركة والاختيار المطلق والرضا الكامل، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تنكح الثيب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت»[1].

وإذا كان الرضا أمراً لابد منه فإن الرؤية لابد منها أيضاً ليكون هذا الرضا جدياً وقائماً على حقيقة، ومنبعثاً من شعور، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأة «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[2] أي فإنه أدعى أن يبارك بينكما فتجتمعا على وفاق وخير وتتعاونا على ما فيه صلاح أمركما.

ثانياً : يدعو الإسلام كلاً من الرجل والمرأة إلى الحرص على أن يكون اختيار شريك العمر في رحلة الحياة مناطه الاعتصام بالدين والخلق ، فذلك وحده هو السبيل الأمثل لبناء أسرة قوية تكون عماداً لمجتمع قوي.

والنصوص التي تحض على حسن الاختيار، وتحذر من الاهتمام بالأعراض الزائلة دون الاهتمام بالقيم الخالدة كثيرة، منها فيما يتعلق باختيار الزوجة ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء)[3] فعلى الرجل أن يختار زوجة طيبة الأورمة كريمة العنصر، فالعرق دساس، ومن ثم

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن ماجه والترمذي
(٣) رواه البخاري

روى أن أبا الأسود الدؤلي (ت: ٦٩هـ) امتن على بنيه باختياره أمهم عفيفة كريمة الخلق فقال لهم: لقد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا، فقالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها»[١] ، وفي هذا يقول الشاعر:

وأول إحساني إليكم تخيري . . لماجدة الأعراق باد عفافها

وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من المرأة التي لا تتمتع بالدين والخلق وإن كانت جميلة لأنها نشأت في بيئة فاسدة قال: (إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء)[٢]

وقال عروة بن الزبير: ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق، ولا وضع نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء.

وقال الشاعر:

وأول خبث الماء خبث ترابه . . وأول خبث القوم خبث المناكح[٣]

وكما وردت الآثار الكثيرة التي تدعو إلى أن يكون اختيار المرأة أساسه الدين والخلق، وردت آثار كثيرة أيضاً تدعو إلى أن يقاس الرجل بهذا المقياس الصحيح مقياس الإيمان والتقوى ومن هذه الآثار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[٤]

ولا يفهمن أحد أن دعوة الإسلام لأن يكون مرجع الاختيار في الزواج إلى

---

(١) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي، صـ١١٨، ط. مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

(٢) رواه الدارقطني.

(٣) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة جـ٤ صـ٢ ط. دارالكتب المصرية.

(٤) رواه ابن ماجه.

القيم الثابتة أنه ينبذ المال والجمال وما إليهما، ولكن الإسلام يجعل الدين والخلق الشرط الأساسي أو الأول لقيام علاقة زوجية ، لأن ما سوى ذلك لايدوم وقد يكون الحرص عليه على حساب ما يجب أن يكون من الدين والخلق فتصبح العلاقة بين الزوجين مادية تفتر أو تنتهي بزوال هذا المتاع الزائل، المهم إسلامياً أن يتمتع كل من الرجل والمرأة بالدين والخلق ، فإذا انضم إليهما المال والجمال والحسب فقد جمع الزوجان كل أسباب الخيروالسعادة.

ثالثاً : الكفاءة . . تعرف الكفاءة لغة بأنها المماثلة والمساواة ، وتعنى في الاصطلاح الفقهي مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة يعتبر الاخلال بها مفسداً للحياة الزوجية.

ولا تعني كلمة المساواة هنا المعني الحرفي، وإنما تعنى أن يكون بين الزوجين لون من التقارب في بعض الأمور حتى يتسنى للعلاقة الزوجية أن تظل قوية لا تعصف بها المشكلات المختلفة، لأن من شأن التقارب بين الزوجين في المستوى الاجتماعي والمالي وكذلك التقارب في الوعي والثقافة والسن أن يكون ذلك أنفى للشقاق بينهما وأحفظ للمودة ، وأدعى للوفاق والوئام»[1] .

والذي لا خلاف عليه أن كل أقوال الفقهاء تؤكد على أن الدين والخلق أساس الكفاءة بين الزوجين، وأن ما سوى هذا من التقارب الاجتماعي والمالي والفكري لا يعني خروجاً على مفهوم المساواة بين الناس، ولكنه يعني احتراماً للأعراف التي لا تصادم نصاً أو قاعدة معلومة من الدين بالضرورة، فضلاً عن أن التقارب في تلك الأمور يساعد على استقرار الأسرة، والإسلام حريص أبلغ الحرص على هذا الاستقرار ولهذا لم يكن احترام ما ذهب إليه الفقهاء حول الكفاءة مناقضاً أو متعارضاً مع مبدأ المساواة أو فيه اعتراف بالطبقية، وإنما هو تعبير عن نظرة موضوعية ومراعاة لطبيعة النفس البشرية التي تجنح إلى التماثل والتشابه وتنفر من التفاوت والاختلاف.

(١) انظر: الفرقة بين الزوجين للشيخ علي حسب الله، ص٢٢ ط. دار الفكر العربي، القاهرة.

رابعاً : الاحترام المتبادل : لأن العلاقة الزوجية علاقة إنسانية سامية، علاقة قوامها المحبة والمودة والرفق والإحسان، عبر عنها القرآن الكريم بعقدة النكاح كما عبر عنها بالميثاق الغليظ، فإن الاحترام والتقدير المتبادل بين الزوجين يحكم العلاقة بينهما مهما يكن هناك من اختلاف في الرأي، أو تفاوت في الحكم على الأشياء، وهذا الاحترام تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾، فالزوجان مطالبان معاً بأن يحسن كل منهما إلى الآخر إحساناً يعبر عن التقدير وحسن العشرة، وجميل الصحبة، واحترام الرأي الآخر، فلا استبداد ولا جفوة أو غلظة، وإنما تشاور وتفاهم، وحنان وسماحة وسعة صدر، وتلطف وتجاوز عن بعض الهفوات التي لا يسلم منها إنسان، والدفع دائماً بالتي هي أحسن، وأما الدرجة التي أعطيت للرجال فليست إلا درجة المسئولية والرعاية ولا تعني إلغاء لشخصية المرأة، أو امتهاناً لإرادتها واستعلاء عليها.

إن الاحترام المتبادل بين الزوجين دعامة أساسية للحياة الزوجية التي تثمر أطيب الثمرات، وتكفل للأسرة حياة الاستقرار والاستمرار، في جو من الطمأنينة والسعادة والأمل المشرق بمستقبل زاهر للأبناء.

خامساً: ولأن عقد الزواج يقوم في الأصل على التأبيد والاستمرار ولا يجوز انحلاله إلا إذا أمست العلاقة بين الزوجين أوْهَى من خيط العنكبوت، وأصبح من الخير لهما أن يتفرقا فإن الشريعة الإسلامية حرصاً منها على أن تظل العلاقة الزوجية قوية حية بمعاني المودة والرحمة تدعو الزوجين إلى علاج ما قد يطرأ على العلاقة بينهما من أسباب النفور والشقاق، وإذا عجز الزوجان عن هذا العلاج وجب على الأمة ممثلة في أهل الزوجين أولاً التدخل والإصلاح، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع، فإن لم يستطع أهل الزوجين ذلك كان على ولي الأمر أن يتخذ من الوسائل ما يراها كفيلة بعودة الحياة الطبيعية بين الزوجين، فإذا باءت كل هذه المحاولات بالفشل كان آخر الدواء الكي، فكان الطلاق والفراق. وجملة القول أن العلاقة الزوجية قوامها الرغبة المشتركة، والإرادة الحرة، والقيم الفاضلة، والتقدير والاحترام المتبادل والشعور الصادق ببناء أسرة يظللها الود والتفاهم،

وينير دربها الاخلاص والوفاء، ويحمي مسيرتها التغاضي عن اللمم والعمل الجاد لتجاوز المشكلات التي قد تهدد هذا المجتمع الصغير بالاضطراب والقلق والانهيار.

المبحث الثالث

أثر العلاقة بين الزوجين

في تنمية الابتكار لدي الأبناء

مما لامراء فيه أن الأبناء الذين لا ينشأون في أسرة، لا يتمتعون بما يتمتع به سواهم ممن نشأوا في رعاية الوالدين من القوة النفسية والعقلية والجسدية، والاستعداد لمواجهة مسئوليات[1] الحياة، مهما يتوافر لهم من وسائل العيش المادية.

لقد أثبتت التجارب أن النشأة الطبيعية للإنسان لا تكون إلا في ظل والدين تجمع بينهما معاني التفاهم والاستقرار النفسي، وأن الإنسان مهما يتحقق له من أسباب الرعاية الغذائية والصحية في صغره، ويفقد حنان الأبوين، فإن نشأته لا تكون صحيحة، وتؤثر هذه النشأة على مستقبل حياته.

ر الأسرة تكفل بيئة نفسية ووجدانية للطفل يكون لها أثرها الفاعل في نسبة ذكائه، ولهذا كان ايداع الأطفال في المؤسسات وإقامتهم بها فترة طويلة، يرتبط بتأخر ارتقاء قدراتهم اللفظية والعقلية، وكان الطفل الذي يعيش في أسرة تتبناه يزيد ذكاؤه عن الطفل الذي يقيم في إحدى المؤسسات[2] مدة طويلة.

فالأسرة -إذن- تلعب الدور المهم في نمو الأبناء عقلياً وجسدياً، ومهما يكن للمدرسة من أثر في البناء العقلي للأبناء، فإنهم لا يلبثون بها كل أسبوع إلا نحو

---

(١) انظر: أطفال بلا أسر، ترجمة محمد بدران، ط. القاهرة.

(٢) انظر: الأسرة وإيداع الأبناء للدكتورعبد الحليم محمود السيد، صـ١١٧، ١٢٢، ط. دار المعارف القاهرة.

اثنين وأربعين ساعة على حين يظلون بين والديهم وفي رعاية أسرهم نحو مائة وست وعشرين ساعة، ومن هنا كان تأثير الأسرة أقوى، وكان دورها أكبر في اشباع الحاجات النفسية والعقلية للأبناء من العوامل الخارجية ولا يقلل من هذا الدور أو يلغيه إلا التفكك الأسري وانشغال الآباء لفترات طويلة خارج المنزل، وميل بعضهم إلى الإفراط في تدليل[1] الأبناء أو التفريط في توجيههم والإشراف عليهم..

وإذا كانت للأسرة تلك الأهمية في حياة الأبناء، وأنها تمثل الاطار الأساسي للتفاعل بين الوالدين والنسل، وإذا كان هذا التفاعل يعد من أكثر الظروف تأثيراً على اتجاهات الأبناء وسلوكهم منذ طفولتهم المبكرة، وتستمر فاعليته في المراحل التالية من العمر -فقد اهتم كثير من علماء النفس بطرق معاملة الوالدين لأبنائهم وما يمكن أن يترتب على ذلك من تشجيع على الابتكار أو تنفير منه منذ مراحل مبكرة من العمر[2].

وقبل تفصيل القول في أسلوب معاملة الوالدين للأبناء، وأثر هذه المعاملة في تنمية الابتكار، تجدر الإشارة إلى مفهوم الابتكار بإجمال.

معنى الابتكار:

ليس في المعاجم العربية القديمة حديث عن الابتكار بالمعنى الذي يذكر في الدراسات النفسية والفلسفية والتربوية الحديثة، وقد أومأت بعض المعاجم المعاصرة إلى أن الابتكار يعني ابتداع الشيء دون سبق[3] إليه، والابتداع هو الإنشاء والبدء على غير مثال سابق، فالابتكار طوعاً لهذا هو استقلال العقلية الإنسانية بحيث يكون ما يصدر عنها صورة غير مسبوقة بها، ولا مقلدة فيه سواها.

---

(١) انظر: انحراف الأحداث في المجتمع القطري للدكتوره أمينة على الكاظم، حولية كلية الإنسانيات، العدد ١٨ صـ١٣٧

(٢) انظر: الأسرة والإبداع الأبناء، صـ٨٠، ٩٩، مرجع سابق.

(٣) انظر: المعجم الوسيط، مادة «بكر» إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد كثر الكلام في مفهوم الابتكار لدى علماء النفس والفلسفةوالتربية ، وتنوعت آراؤهم في هذا المفهوم[1]، وإن كانوا بوجه عام لا يختلفون في أن الابتكار لا يخرج في دلالته عن الكشف عن جديد متميز [2] في نوعه أو جديد أصيل له قيمته وفائدته الاجتماعية[3] ، وأن العوامل التي تكفل له هذا الكشف متعددة من

أهمها : الأصالة والمرونة التلقائية والطلاقة الفكرية ، وتعني الأصالة أن الأفكار تنبعث من الشخص وتنتمي إليه وتعبر عن طابعه وشخصيته ، أو هي القدرة على انتاج أكبر قدر من الأفكار غير الشائعة أو الماهرة[4]

وتعد الأصالة الصفة الأولى المبرزة عند كل الشخصيات المبتكرة مهما يكن ميدان الابتكار[5] .

وأما المرونة التلقائية فتعني القدرة على انتاج أكبر عدد من الأفكار التي تنتمي إلى ظاهرة من الظواهر ، بمعنى أن يكون هناك ما يسمى بتداعي المعاني ، وهو الانتقال من فكرة إلى أخرى أو من استخدام لشيء معين إلى استخدام آخر له ، فالمرونة طوعاً لهذا تشير إلى قدرة عقلية لا تجمد على فكرة واحدة ، وإنما تغوص وراء أفكار متنوعة في طواعية وتلقائية .

ويراد بالطلاقة الفكرية ما يمكن أن يسمى بسرعة البديهة ، وهو القدرة على انتاج أكبر عدد من الأفكار التي تدور في فلك واحد وفي وحدة زمنية معينة[6]

---

(١) انظر : التفوق العقلي والابتكار للدكتور عبدالسلام عبد الغفار، صـ١٢٤ ،ط. دار النهضة المصرية، القاهرة

(٢) انظر : العملية الابتكارية للدكتور محمود بسيوني صـ٢٦ ط. عالم الكتب، القاهرة.

(٣) انظر : التفوق العقلي والابتكار، صـ١٧٧

(٤) المصدرالسابق، صـ١٥٧

(٥) انظر : العملية الابتكارية، صـ٣٨

(٦) انظر : التفوق العقلي والابتكار ، صـ١٥٧

وخلاصة القول أن الابتكار يعتمد على مواهب الشخص التي تعبر عن أصالته وتفرده أكثر من اعتماده على ما يقدمه الموقف الخارجي من منبهات وإيحاءات[1]، وأن المبتكر إنسان ينفر من التكرار والملل، ويريد أن يحقق إنسانيته تحقيقاً متكاملاً يعرف التجديد على الدوام، ويضيق كل الضيق بحياة الرتابة أو الجمود والتقليد.

على أن الابتكار لا ينبغي قصره على العلماء الذين يبدعون ويحققون التطور الحضاري للإنسانية، وإنما يشمل كل الذين يتمتعون بالاستقلال العقلي مهما تكون مستويات التفكير لديهم، فكل إنسان ميسر لما خلق له، ومادام لا يلغي عقله ولا يكون ظلاً لغيره في تفكيره فإنه يستطيع أن يقدم في مجال عمله ابتكاراً على نحو من الأنحاء. وهذا ما يراه أصحاب المذهب الإنساني الذين يذهبون إلى أن الناس جميعاً لديهم القدرة على الابتكار وأن الاختلاف بين الأفراد ما هو إلا اختلاف في الدرجة.[2]

تنمية الابتكار لدى الأبناء:

إذا كان الابتكار في مفهومه العام يعني الاستقلال العقلي ويعبر عن الشخصية بما لها من قدرات وطاقات وابداعات فإن تنمية الابتكار لدى الأبناء يحتاج إلى رعاية خاصة تبدأ في البيت أولاً، ثم تنتقل إلى المدسرة وبعد ذلك إلى المجتمع.

وهذه الرعاية في البيت مسئولية الوالدين، والقيام بهذه المسئولية في إحسان يقتضي أن تكون العلاقة بين الأب والأم علاقة ود واحترام وتفاهم وانسجام حتى يصبح البيت بيئة يسودها الاستقرار والأمن النفسي، ولا يعرف النزاع أو الشقاق الذي يرتد على البيت بالقلق والخوف من المستقبل المجهول ومن هنا كانت العلاقة بين الزوجين ذات أثر فاعل في حياة الأبناء، ويتجلى بعض الأثر في تنمية الإبداع

(١) انظر: المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبة، جـ١صـ١. ط. القاهرة.

(٢) انظر: التفوق العقلي والابتكار، صـ١٩١.

والابتكار، إذا كانت هذه العلاقة تمثل الاستقرار والترابط الحميم بين الزوجين، فقد تبين من عدد من دراسات سير الحياة لبعض الأفراد ذوي القدرات الإبداعية الفائقة، وكذلك تبين من عدد من الدراسات التجريبية أن آباء المبدعين يمثلون عاملاً حاسماً في أدائهم الإبداعي من حيث كونهم نماذج للتوحد معهم ومن حيث استثارتهم لمواهب أبنائهم ومحاولة تنمية هذه المواهب[1].

فبيئة الأسرة المستقرة لها دورها بلا جدال في تنمية الابتكار لدى الأبناء، وإن كان هناك بين الباحثين اختلاف حول العلاقة بين البيئة الاجتماعية للطفل والعوامل الوراثية، ومدى دور كل منهما في الإبداع والابتكار، فالبعض يؤكد أن الصفات الوراثية غير العادية هي العامل الأرجح في إبداع العباقرة وموهبتهم، وأن الخبرات الاجتماعية والتربوية تلي القدرة الموروثة في الأهمية، ويرى البعض الآخر عكس هذا الرأي[2]

ومع هذا التفاوت في الرأي حول العلاقة بين البيئة الاجتماعية للطفل والعوامل الوراثية بالنسبة لتنمية الإبداع والابتكار لا يمكن انكار أن تلك البيئة لها دورها المهم في هذه التنمية، وأن هذا الدور قد يفوق العوامل الوراثية في كثير من الأحيان، وذلك أن التجارب دلت على أن أكبر نمو للقدرات العقلية إنما يحدث خلال فترات النمو الأعظم للدماغ والقشرة الدماغية، وهذا النمو يكون في فترة الطفولة ويكون مصحوباً بزيادة مرموقة في القدرات العقلية، ومن ثم تتزايد القدرة العقلية للطفل من سن الثالثة والرابعة بمقدار كبير، وأيضاً بين الرابعة والخامسة والسادسة[3].

وما دامت المرحلة الباكرة من حياة الطفل تتمتع بهذه الخاصية، خاصية النمو المتزايد للقدرات العقلية فإن بيئة الأسرة تقوم بالدور الأول في رعاية هذا النمو

---

(١) انظر: الأسرة وابداع الأبناء، صـ١٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، صـ٢٠.

(٣) انظر: النمو والتربية للأستاذه سلوى أبوزيد، جريدة الشرق القطرية ٤ ديسمبر سنة ١٩٩٥.

ودفعه إلى مجالات العطاء النافع، ولا ريب في أن هذه الرعاية الأولى تساعد على بناء العقلية الابتكارية التي يرجع إليها الفضل في تغيير مظاهر الحضارة، وتطوير الحياة الأنسانية.

أثر العلاقة بين الوالدين في تنمية الابتكار لدى الأبناء:

إن السؤال الذي يفرض نفسه بعد الحديث عن مهمة الأسرة في تنشئة الأبناء، وأن هذه المهمة تشمل التربية الجسمية والنفسية والعقلية، وأن الطفل الذي يحرم من الحياة في جو الأسرة يفتقد أهم المقومات التي تشكل شخصيته وتوجه مسيرة حياته، بعد هذا يجيء السؤال عن مدى أثر العلاقة بين الزوجين في تنمية الابتكار لدى الأبناء، وكيف يتسنى لهذه العلاقة أن تنهض برسالتها في هذه التنمية؟

إن العلاقة الزوجية إذا قامت كما أسلفت على تلك الدعائم التي تجعل من الزوجين كأنهما فرد واحد، والتي تربط بينهما برباط مقدس يقوم على المودة والرحمة والسكن النفسي المشترك فإنها علاقة تتيح للأبناء بيئة أسرية صحية معنوياً ومادياً، وصحة البيئة وسلامتها من كل ما يلوث نقاءها وصفاءها شرط جوهري لا خلاف عليه للتنمية بمفهومها الشامل، وبذلك تضع العلاقة الزوجية الطيِّبة حجر الأساس في بناء الأجيال الصاعدة بناء متكاملاً. وهذه العلاقة من جهة أخرى تنظر إلى الأبناء على أنهم ثمرة من ثمرات الرباط الشرعي المقدس، وتدرك أن حماية هذه الثمرة من كل الآفات هو مسئوليتها، وفي الوقت نفسه حماية للعلاقة الزوجية مما قد يهددها، ويفصم عروتها.

والذي يمكن قوله إن العلاقة الزوجية الحميمة إذا انضم إليها قدر من الوعي الثقافي تؤدي رسالتها في تنمية ابتكار الأبناء على النحو التالي:

أولاً: إن المودة بين الزوجين تنعكس على الأبناء في بذل الحب والرعاية وهو حب لا يعرف التغاضي عن الهفوات والزلات، ولكنه حب يقوم على الضبط الاجتماعي الحكيم الذي يقسو في حنو إذا اقتضت الضرورة ذلك كما يقول

الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك جازماً

فليقس أحياناً على من يرحم

على أن الحب الذي يتجاوز حد الاعتدال، وينقلب إلى خوف على الأبناء من كل شيء يكون حباً مدمراً، والحب الناضج هو الذي يرقب الثمرة في نموها دون أن يتدخل في حياتها إلا بمقدار ما يدفع عنها النباتات الطفيلية ومن ثم يمنح هذا الحب الحرية للأبناء، ويشعرهم بالثقة في قدرتهم على عمل ما هو مناسب لهم حتى في اختيار ألعابهم، وأنهم أهل لاتخاذ القرارات لأنفسهم دون تدخل آبائهم[1]

لقد تبين من بعض الدراسات أن هناك ارتباطاً ايجابياً بين القدرات الإبداعية للأبناء وعلاقة الوالدين، إذا تحقق لهذه العلاقة التسامح والدفء العاطفي أو الحب والديمقراطية[2]

إن التسامح والحب يعطي الأمن النفسي، والديمقراطية أو الحرية تمهد لتكوين الشخصية التي تعتمد على النفس، ولا تعيش عالة على غيرها، وهذه الشخصية تكون واعدة بالتجديد والابتكار فالصفة الأولى للمبتكر هي الاستقلالية أو ما يسمى بالفرادة.

ثانياً: ويتفرع عن مشاعر التسامح والحب والحرية قيم تحكم الأسرة وترسم لها الخط الذي لا ينبغي تجاوزه وهذه القيم تمثل المثل والمبادئ التي تبني الأنسان، ومنها الأمانة والصراحة واحترام الآخرين وهي أثر من آثار الحرية، والعمل والطموح، وهما من لوازم الحب الناضج، والأبناء الذين يُنشأون وفق ضوابط منطقية، وقيم عليا تحدد مفاهيم الصواب والخطأ، يقبلون على الحياة بجد وعمل

(١) انظر: التفوق العقلي والابتكار، ص٢١٨.

(٢) انظر: الأسرة وابداع الأبناء، صـ١٤.

وحرية اختيار ولا ينفقون وقتهم في غير ما يعود عليهم بالخير . . وهذا السلوك هو بداية الطريق نحو صفة مهمة للابتكار وهي الاكتفاء الذاتي، وهذه صفة لا تنفك عن صفة الاستقلالية، لأن هذه إذا كانت تعني أن المبتكر لا يخضع فيما يقدمه إلى ما هو معروف ومتفق عليه، فإن الاكتفاء الذاتي يعني اعتماد المبتكر على نفسه في تقويم عمله[1]، ولا سبيل لهذا إلا بالجد والنظر العقلي الفاحص الذي يطمح دائماً إلى تقديم الجديد المفيد.

ثالثاً: والطفل الذي يغدق عليه والداه تلك المشاعر، ويدرك أن حياته لا تعرف الانفلات من القيود الضابطة، وأن الحرية التي يتمتع بها تلقى عليه مسئولية الاعتماد على النفس يحس بأهميته ومكانته في الأسرة وأن منزلة والديه وإن بلغت حد الشهرة والذيوع في المجتمع لا تطغى على مكانته، ولا تلغي وجوده، وبهذا الإحساس تنمو الثقة بالنفس ويصبح الوالدان إذا كان أحدهما أو كلاهما في مركز مرموق مثلاً أعلا، ونموذجاً حياً عملياً للتفوق، والنموذج العملي أوقع في النفس، وأعمق في الحس، وأرضى للعقل من الحديث النظري.

رابعاً: يدعم إحساس الطفل بأهميته في الأسرة وبخاصة في مرحلة التمييز حتى تتجذر في أعماقه مشاعر الثقة بالنفس وأنه وإن كان صغير السن فله في الأسرة مكانة ولرأيه اعتبار، يدعم هذا الإحساس الحديث مع الطفل في مشكلات الأسرة ولا سيما تلك التي قد تجد على العلاقة بين الوالدين، فقد يلاحظ عليهما فتوراً في العلاقة بينهما، وقد تستحوذ عليه بسبب هذا بعض الأوهام والهواجس التي تدخل على عقله ونفسه صوراً من القلق والإضطراب، ولكنه إذا وقف ولو بصورة مجملة لا تهتم بالتفاصيل وإنما تشير إلى أن هناك بعض المسائل التي اختلف حولها الوالدان، وأنهما سيعملان على علاجها وأنها لا تمثل في حياة الأسرة مشكلة خطيرة، فإن هذا الأسلوب يكسب الطفل مزيداً من قوة الشخصية، وتحكون صراحة الأبوين معه من عوامل النضج العقلي، والتميز بالواقعية،

---

(١) انظر: التفوق العقلي والابتكار، صـ٢٢٣.

وإدراك أن الإنسان لا ينبغي أن يكون وحده عندما يواجه مشكلة من المشكلات[1].

والذي لا جدال فيه أن من المشكلات ما لا يمكن مصارحة الأبناء بها غير أن هذا لا يعني تركهم في حيرة من أمرهم إزاء ما يلاحظون من فتور في العلاقة الزوجية، وهنا تكون الحكمة في اتخاذ الموقف الملائم الذي ينقذ الأبناء من حيرتهم، ولا يجعل لما يلاحظون أثراً ضاراً عليهم، والزوجان اللذان جمع بينهما الود والتفاهم والحرص الفطري على رعاية الأبناء يستطيعان بحسن التصرف والتعاون تجاوز ملاحظة الأبناء دون أن يكون له أثر سلبي عليهم.

خامساً: على أن العلاقة الزوجية الوطيدة لا تمنح الدفء العاطفي وكذلك الحرية والديمقراطية للأبناء فحسب، ولكنها ترقب إرهاصات التفوق العقلي، أو الاهتمامات الخاصة التي تعبر عن بوادر النبوغ في مجال من المجالات فتعمل على تمهيد طريق النمو لها بالتشجيع والمشاركة، والطفل إذا آنس من والديه أنهما يشدان أزره فيما يفكر فيه ولا يمارسان ضده ضغوطاً لكبت حرية التعبير والتفكير لديه، فإنه يشعر بثقة فائقة في قدراته، كما يشعر بالمزيد من الأمان النفسي، ويدرك أنه يستطيع أن يحقق المعجزات وأن يتغلب على كل الصعاب، وهذا سبيل الإبداع والابتكار، وعلى هذا الأساس يتوقع بعض الباحثين أن تكون القدرات الإبداعية مرتفعة لدى الأفراد الذين تقل لديهم ظروف الكف عن التعبير عن أفكارهم الجديدة بأساليب وتكوينات مبتكرة بينما تزيد لديهم أساليب التشجيع على الاستمتاع بحرية التعبير عن تخيلاتهم.. ورغبتهم في القيام بالأعمال الصعبة غير المألوفة[2].

إن فرض إرادة الوالدين على الأبناء في اختيار تخصص علمي معين دون أن

(١) انظر: «لا تخافوا الحديث عن المشاكل مع الأبناء» جريدة الشرق ٥/١٢/١٩٩٥م.

(٢) انظر الأسرة وإبداع الأبناء صـ١٢٧، والتربية في العائلة لفيلكس توما صـ١١٣ فقد جاء في هذه الصفحة: «إن الحياة العقلية تزداد قرباً من حد الكمال كلما ازداد الإنسان حراكاً اختيارياً، أي متى أصبحت الإرادة قوية حرة خالية من كل قيد بحيث يحكم بما يقرره عقله لا بما يوحيه عقل الآخرين» ط. مؤسسة عز الدين بيروت.

تكون هناك رغبة ذاتية في هذا التخصص تعد كبتاً وإكراهاً للعقل على أن يعمل في مجال لا يهش له أو لا يميل إليه، فيخسر الابتكار ولا يتحقق للوالدين بصورة صحيحة ما يحرصان عليه، وكم جنى مثل هذا السلوك على طاقات إبداعية لو ترك لها حرية الاختيار لأثمرت أينع الثمرات فيما ترغب فيه أو تهفو إليه.

إن الوعي الثقافي للوالدين في ظل التفاهم بينهما خليق بعدم فرض إرادتهما على الأبناء، ويظل موقفهما متميزاً بالحرية وإعطاء الأبناء الحق في اتخاذ القرارات دون تدخل منهما[1]، ومن ثم كانت للحياة الأسرية التي عاشها المبتكر وأساليب معاملة الوالدين له ومستوياتهما الثقافية أثرها البالغ في حياته العقلية والإبداعية.

سادساً: وإذا كان الطفل يرقب تصرفات والديه، ويرى فيهما الصورة التي يحاكيها أو يقلدها، فإنه إذا رأى ما ينمي عقله، ويفتح لفكره أبواب الانطلاق والتحليق فهو بلا ريب سيتخذ من تلك التصرفات القدوة التي تهيىء له فرصة الابتكار، لأنها لن تكون قدوة تعطل حرية العقل، وإنما ستكون دافعاً له للحركة والاجتهاد، ولهذا كان تطابق القول مع الفعل في تصرفات الوالدين قوةً تحمي الشخصية الوليدة من التمزق الفكري وكانت مشاركة الأب للأم في بعض أعمال المنزل لوناً من ألوان هذا التطابق، وآية عملية على أن العلاقة بينهما هي علاقة الحب والتعاون، وأن مسئولية الأسرة شركة بين الرجل والمرأة، ولهذا دوره في تأكيد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا وحده أو في عزلة عن غيره، وأن روح التكامل بين الناس يجب أن تسود علاقاتهم فهم كما يقول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة . . بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

إن هذا السلوك العملي الذي يرقبه الطفل في الأسرة هو وسيلة التعليم من خلال خبرات الحياة، وهذا اللون من التعليم أبلغ أثراً في العقلية الابتكارية من النصائح اللفظية والتوجيهات الكلامية، فالأبحاث العلمية تؤكد أن الأطفال في كثير من الثقافات لا يعملون ما يقوله لهم الراشدون، وإنما يعملون ما يشاهدونه من

(١) انظر: التفوق العقلي والابتكار صـ١٦٩.

سلوك الراشدين، وما يتمثل في نماذج واقعية[1].

ولن يتحقق في الأسرة تطابق بين القول والفعل، ولن يكون هناك النموذج الواقعي الذي يتأسى به الطفل إلا مع زوجين ألف بينهما الدفء العاطفي، وفهم كل منهما الآخر، ولم تعرف حياتهما الاستبداد في الرأي، أو عدم المصارحة إذا هبت عليهما رياح الخلاف والشقاق.

سابعاً: والطفل الذي يحيا في أسرة لا تفرق بين الأبناء في أسلوب المعاملة، فلا تخص واحداً منم دون غيره باهتمام خاص لا يشعر بأنه أدنى من سواه مكانة، وإن كان ليس مثله ذكاء، وهذا الشعور بمعنى المساواة هو الذي يحفظ على الطفل راحته المعنوية، فهو ليس منبوذاً أو مكروهاً أو محتقراً، فهو إنسان محترم له ما لغيره من التقدير والاعتبار، وهو من ثم يحترم الآخرين ويتعاون معهم سواء في الأسرة أو في المدرسة أو في المجتمع والإنسان الذي تتطهر مشاعره من أدران الفردية والكراهية يخطو نحو مستقبله، بثقة ورغبة أكيدة في تحقيق ذاته ويحرص على ألا يكن في آرائه وأفكاره صدى لآراء غيره حتى أقرب الناس إليه، وبذلك تتألق طاقاته الإبداعية مهما تكن درجتها وتزيدها الأيام تألقاً واتبكاراً.

إن الوالدين إذا فرقا في المعاملة بين الأبناء قتلا فيهم روح المودة والإخاء وأحدثا في الاستعدادات الفطرية شروخاً قد تنتهي بها إلى الذبول، ولا تعرف طريقها للنمو والعطاء، وحسن العلاقة بين الزوجين عامل مهم في رعاية الأبناء على نحو من المساواة العادلة، وهذه الرعاية من مقومات العملية الابتكارية وتكوين الشخصية السوية ذات العقلية المستقلة.

تلك هي المبادئ العامة التي يمكن للعلاقة الزوجية الحميمة أن تنهض على أساسها بواجبها في تنمية الابتكار لدى الأبناء، وهي مبادئ أومأت إليها دراسات الباحثين في علوم النفس والاجتماع والتربية، وقد ذكرت أن الوعي الثقافي للزوجين مع علاقة الود والاحترام بينهما عاملان مهمان في هذه التنمية، ولو

(١) انظر الأسرة وإبداع الأبناء صـ٤٧.

فرضنا أن الحياة الزوجية افتقدت عامل الوعي الثقافي بأن كان الزوجان لا يعرفان شيئاً ذا بال عن الثقافة فهما أميان أو شبه أميين، لأنهما لا يقرآن ولا يتابعان الحركة الفكرية فإن العلاقة بينهما إذا توافر لها ما جاء في المبحث الثاني عنها ستسهم بدور إيجابي في تنمية ابتكار الأبناء، وكم عرف تاريخ العباقرة وقادة الفكر مبتكرين ومبدعين إنحدروا من أسرة لا حظ للزوجين فيها من التعليم، بيد أن الجهل بالقراءة والكتابة لم يحل دون أن تحقق العلاقة الزوجية رسالتها في تهيئة المناخ النفسي الملائم للنمو العقلي والإبداع الحضاري مادامت علاقة سكن مشترك بين الأبوين.

وغني عن الذكر أن العلاقة الزوجية إذا افتقدت معاني المودة والرحمة والاحترام المتبادل، ومحاولة كل زوج أن يفهم الآخر، وعلاج ما قد يطرأ عليهما من مشكلات بالتي هي أحسن فإن الأبناء لا ينشأون نشأة سوية ويتعرضون لمخاطر شتى تهدد حياتهم ومستقبلهم، وفي مقدمة هذه المخاطر ضمور طاقات الإبداع والابتكار، أو اندفاعها نحو ميادين التدمير والإجرام.

الإسلام وتربية الأبناء:

لقد كانت مهمة الدين الإسلامي الذي ختم الله به الوحي والنبوة وجعله للناس كافة إعادة صياغة الشخصية الإنسانية على نحو يكفل لها معنى العبودية الكاملة لله بعد أن ران على هذه الشخصية ظلام الجهالة والضلالة، ولهذا كان الإسلام في كل تشريعاته وتعاليمه ديناً تربوياً شاملاً، يهذب الوجدان، والسلوك، ويحرر العقل من الخرافات والأساطير ويدعو إلى العلم بمفهومه الواسع، ومن هنا لم يكن انقاذاً للبشرية من أوزار الشرك والوثنية فحسب، وإنما كان إلى هذا انقاذاً لها من أوزار التخلف والجهل والأمية.

والحديث عن موقف الإسلام من تربية الأبناء حديث ذو شجون، يحتاج

تفصيل القول عنه إلى دراسات[1] مستفيضة، وتكفي الإشارة إلى أن ما تحدث عنه علماء النفس والاجتماع والتربية حول تربية الأبناء وكذلك حول العلاقة بين الزوجين ودورها في هذه التربية قد قرره الإسلام منذ نحو أربعة عشر قرناً، فالمحبة التي يجب أن يسبغها الآباء على الأبناء وإن كانت في أصلها فطرية غير أن الإسلام يؤكد عليها وبين أن الذين تحجرت مشاعرهم نحو أبنائهم ليسو أهلاً لرحمة الله.

روي أن الأقرع بن حابس رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقبل سبطه الحسين -رضي الله عنه- فقال: إن لي عشرة من الأبناء ما قبّلت واحداً منهم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: من لا يَرحم لا يُرحم»[2].

والأبناء أمانة والله سائل كل امريء عما استرعاه وائتمنه عليه، وفي ذلك يروى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-أنه قال: «والرجل راع في أهله وهو مسئول عنهم»، كما أن المرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، وهذه المسئولية تشمل كل جوانب التربية والرعاية المادية والمعنوية.

وإذا كانت العدالة في معاملة الأبناء ضرورة لتوجيه الطاقات نحو القيم الفاضلة والحياة العقلية المتجددة، فإن الإسلام دين العدالة المطلقة، ولا يقر ظلماً أياً كان لونه في أي مجال من المجالات، وبخاصة في مجال تربية الأبناء، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[3].

ولهذا كان السلف يستحبون التسوية بين الأبناء في كل شيء حتى في القبلة، والبسمة لتظل صلة الرحم قوية لا تنقطع أو تضعف، ولتكون نشأة الأبناء سوية، خالية من الضغائن والأحقاد التي تفتك بالاستعدادات الخلقية وتوجه تيارها بعيداً عن الإبداع والابتكار.

وقد ذهب بعض الباحثين في قضايا الابتكار إلى أن عدم التجانس

(١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، للشيخ عبد الله علوان.
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه.

الاجتماعي بين الزوجين يؤدي إلى التناقض في وجهات النظر بينهما ، وكذلك إلى التناقض في المواقف المختلفة الخاصة بالتوجيه والتربية. ويؤثر هذا سلباً على الأبناء فيشبون بعلل كثيرة تقتل فيهم طاقة العطاء العقلي، ويحكمون على هؤلاء الأبناء بأنهم ينتمون إلى أسرة غير أصيلة[1].

وفقهاء الإسلام كانوا أسبق من هؤلاء الباحثين في حديثهم عن مفهوم الكفاءة واختيار الزوجة ، وهو يشهد لهم بأنهم كانوا فيما صدر عنهم يراعون طبيعة النفس البشرية، وأن تحقق الكفاءة بمفهومها الإسلامي يحمي العلاقة الزوجية من الاضطراب والاختلاف لتكون الأسرة محضناً صالحاً لتربية الأبناء تربية رشيدة.

والاسلام دين القوة بمفهومها الشامل ليكون المؤمنون به في كل زمان ومكان في مركز القيادة والريادة والخيرية، ولذا يحض على التربية البدنية والعقلية للأبناء منذ الطفولة، بل يأمر بها قبل أن يولد الطفل ، فرعاية الحامل نفسياً وصحياً وغذائياً أمر واجب، وإذا ترتب على القيام ببعض التكاليف الشرعية ضرر للجنين أو للأم كالصيام فإن للمرأة أن تفطر ولا إثم عليها، وإذا كانت الأم ترضع طفلها ثم حملت وهو مازال في مرحلة الرضاعة فإنه ينبغي عليها ألا ترضعه لأن لبنها أصبح غير صالح لإرضاعه، فالطفل الذي يرضع لبن الحامل يحمل عنصر الضعف، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير، على أن الإسلام يلزم الأم بإرضاع طفلها إلا إذا كانت هناك ظروف صحية قاهرة تحول بينها وبين ذلك، وهذه الرضاعة الطبيعية لون من ألوان التواصل العاطفي بين الأم والطفل وهذا التواصل يمنح الطفل نمواً نفسياً طبيعياً يساعد على ترسيخ أسس الصحة العقلية له في سن مبكرة فيكون في مستقبل حياته طاقة مبدعة نافعة.

وإذا كان الإسلام قد جاء بالقواعد والمباديء التربوية السديدة، وسبق بها كل العلماء في هذا المجال، وإذا كان الباحثون في ميدان علوم النفس والتربية

---

(١) انظر : العملية الابتكارية ص٣٦.

والاجتماع قد توصلوا إلى بعض الحقائق والأسس التربوية النافعة، فإن الإسلام وهو دين الانفتاح الفكري يأمر بأخذ كل ما هو صالح من العلوم والثقافات، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها، فهذا الدين يربي المسلم تربية استقلالية تسعى إلى ما لدي غيرها من خير وتهمل ما عداه، فالشخصية الإسلامية في طلبها للعلم لا تقنع بما في محيطها، وإنما ترتاد كل منابع الفكر والثقافة مهما تباعدت أو اختلفت عقائد القائمين عليها وهي إلى هذا الحرص البالغ على طلب العلم وأخذه دون نظر إلى مصدره تتمتع بحصانة تحول بينها وبين أن تذوب في سواها، فهي فيما تلم به من ثقافات تحيله إلى صبغة جديدة، فيصبح وكأنه فكر إسلامي خالص، وما أشبه الشخصية الإسلامية في طلبها للعلم بالنحلة التي تجمع الرحيق من شتى الأزاهير، ثم تخرجه بعد ذلك شهداً ذا مذاق خاص ونفع خاص.

وفيما يتعلق بالتربية وتنمية الابتكار يحض الإسلام على الأخذ بكل الدراسات المفيدة في هذا، ولكن ما ينفرد به هذا الدين في التربية وتنمية الابتكار، هو المزج بين تكوين الاعتقاد السليم، وتكوين الثقافة العقلية الواسعة، وذلك لأن غرس التدين الذي هو أساس القيم الروحية يكون عن طريق النظر والبحث والتأمل والاستنباط، والآيات القرآنية في هذا كثيرة، ومتى امتزجت التربية الروحية بالتربية العقلية نشأت عن ذلك قوة الشخصية، لأن العقل ينمو فيستفيد الإنسان في حياته ومعيشته، وقدراته وتسمو الروح وتقوى فتكون عاصماً من الزلل والخطل[1]

كذلك ينفرد الإسلام في ميدان التربية العقلية وتنمية الابتكار بأن الغاية من طلب العلمَ هي ترسيخ الإيمان وتكوين الإنسان، ونفع الناس جميعاً، فلا يعرف هذا الدين اتخاذ العلم وسيلة للبغي، ولا يقر احتكار المعرفة، وإنما يأمر بأن يكون العلم في خدمة الحياة الإنسانية ورفاهيتها، أما أن يصبح وسيلة الأقوياء لقهر الضعفاء وامتهان آدميتهم ونهب أرضهم وثرواتهم، فهذا وضع للعلم في غير موضعه وهو نذير بكارثة الدمار الشامل لكل مظاهر الحياة على الأرض.

---

(١) انظر: التربية الإسلامية للطفل والمراهق، للواء محمد جمال الدين محفوظ، صـ١٩٦، ط. دار الاعتصام، القاهرة.

وجملة القول أن العلاقة الزوجية الطيبة تتعهد النبتة قبل أن تنشق الأرض عنها، وبعد ذلك حتى تستوي على سوقها، فالتربة صالحة للحرث والإنبات ومناخ البيت يتيح للزرع أن يؤتي أكله طيباً في حينه، فهناك الأسوة الحسنة من الوالدين، وهناك الرعاية الشاملة اليقظة التي تجتث الطفيليات وتقدم الغذاء والدواء والتي لا تغفل لحظة عن التوجيه، والتي تراقب ارهاصات الإبداع فتزكيها وتنميها، فيكون الحصاد بعد ذلك نبوغاً وعبقرية وابتكاراً على نحو من الأنحاء فكل ميسر لما خلق له ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أُتِيتُم مِّنَ العِلمِ إِلا قَلِيلا﴾[1].

نتائج وتوصيات

وبعد هذه الدراسة الموجزة عن أثر العلاقة الزوجية في تنمية الابتكار لدي الأبناء ما أهم النتائج التي انتهت إليها، وما أهم التوصيات التي توحي بها..

إن أهم هذه النتائج مايلي:

١ - لا يتحقق للأسرة مفهومها الصحيح والكامل إلا بوجود الأبناء.

٢ - لأن الأسرة عماد المجتمع وضع الإسلام لها أقوم التشريعات حتى تنهض برسالتها على أحسن وجه وأكرم غاية.

٣ - ومن هذه التشريعات قيام العلاقة الزوجية على الدين والخلق والمودة والرحمة والرغبة المشتركة والكفاءة وتدخل الأمة عند الضرورة لحماية هذه العلاقة مما قد يتهددها بالتمزق والفراق.

٤ - لا خلاف في أن العلاقة الزوجية إذا كانت طيبة فإنها ترتد على الأبناء بالنشأة الصحية نفسياً وعقلياً.

٥ - إن منح الأبناء منذ الصغر الدفء العاطفي والمصارحة والحرية في اتخاذ

---

(١) الآية ٨٥ في سورة الإسراء

القرار والتدريب على الاعتماد على النفس ومشاركة الآباء فيما يرغب فيه الأبناء من أهم عوامل الإبداع والابتكار لديهم . .

٦ - إن فلسفة التربية في الإسلام مبعثها رقي الإنسان وتكريمه وغايتها خشية الله وإعلاء كلمته .

٧ - الإسلام دين الحرية الفكرية ، والعلم فيه وسيلة لخير الإنسانية كلها ويدعو إلى طلب المعرفة دون نظر إلى مصدرها مادامت نافعة .

وأما أهم التوصيات التي ترشد إليها الدراسة فهي :

١ - من أجل أن تكون الأسرة خلية صالحة في جسم المجتمع ينبغي أن يراعى في تكوينها الدعائم التي تقوم عليها في نظر الإسلام ، ومنها الدين والخلق والرغبة المشتركة والكفاءة الزوجية ، وألا تخضع في هذا التكوين للتقاليد والأعراف التي لا يقرها الشرع الحنيف .

٢ - يجب قبل الزواج إعداد الرجل والمرأة إعداداً تربوياً وثقافياً للحياة الزوجية ، وحبذا لو أدخل في مناهج الدراسة الثانوية أو الجامعية مادة تحت عنوان«التربية العائلية» تشتمل على مبادئ تبين طبيعة العلاقة بين الزوجين وما يجب أن تكون عليه ، كما تشتمل على مبادئ تربية الأطفال ، وعلم نفس الطفل بصورة نظرية ، وعملية تطبيقية[١] .

٣ - أقترح تنظيم دورات مسائية للآباء والأمهات لتوعيتهم بواجبهم نحو أبنائهم وتعريفهم بأنجع الطرق التربوية لاتباعها في تربية أبنائهم تربية عقلية وأخلاقية ونفسية قويمة[٢] .

وأخيراً إذا شئنا جيلاً يبتكر فلابد من أن تكون الأسرة مهيأة لإعداد هذا الجيل ، ومن ثم كان العمل على دعم الأسرة ونشر الثقافة الإسرية هو بداية الطريق نحو مستقبل مشرق بالإبداع والابتكار .

---

(١) انظر : نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي ، للدكتور محمد فاضل الجمالي صـ١٦٥ ، ط . تونس .

(٢) انظر : المصدر السابق صـ١٦٤

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ - الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبدالواحد وافي، ط . القاهرة .

٢ - الأسرة والمجتمع للأستاذ محمدعبدالفتاح الشهاوي .

٣ - الأسرة وإيداع الأبناء للدكتور عبدالحليم محمود السيد، ط . دار المعارف ، القاهرة

٤ - أصل العائلة لمليحة عوني ، ط . بغداد .

٥ - أطفال بلا أسر ترجمة محمد بدران، ط . القاهرة .

٦ - انحراف الأحداث في المجتمع القطري، للدكتوره أمينة الكاظم، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد١٨

٧ - التربية الإسلامية للطفل والمراهق للواء جمال الدين محفوظ ، ط . دار الاعتصام، القاهرة .

٨ - التربية في العائلة لفيلكس توما، ط . بيروت .

٩ - التفوق العقلي والابتكار للدكتور عبدالسلام عبدالغفار، ط . القاهرة .

١٠ - دور الأسرة كأداة للضبط الاجتماعي في المجتمع العربي للدكتور عبدالمجيد سيد أحمد منصور، ط . الرياض .

١١ - سنن ابن ماجه .

١٢ - سنن الترمذي .

١٣ - سنن الدارقطني

١٤ - صحيح البخاري

١٥ - العملية الابتكارية للدكتور محمود بسيوني ، ط . القاهرة .

١٦ - عيون الأخبار لابن قتيبة . ط . دار الكتب المصرية .

١٧ - الفرقة بين الزوجين للشيخ علي حسب الله، ط . القاهرة .

١٨ - لا تخافوا الحديث عن مشاكل الأبناء، جريدة الشرق القطرية، ٥/ ١٢/ ١٩٩٥م .

١٩ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٢٠ - المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبة ، ط . القاهرة .

٢١ - النمو والتربية ، للأستاذه سلوي أبوزيد ، جريدة الشرق ٤/ ١٢/ ١٩٩٥م .

٢٢ - نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي للدكتور محمد فاضل الجمالي، ط . تونس .